البطل والخلاص

بقلم محمد شكري

هل يفرض في الكاتب أن ينقذ ابطاله كما يحدث لروكامبول وجيمس بوند ؟

في الماضي ، كان يتم أنقاذ البطل بكل المعجزات الغيبية والواقعية أن (فانتين) تحتضر . ولديها سر وصاية عن ابنتها كوزيت تريد ان تطمئن عليها قبل موتها . وفي « بائعة الخبز » (١) لا بد أن يكون جاك جيرود (بول هرمان فيما بعد) هو القدر القاسي على حنة فورتيه التي تفني شبابها في السجن (اكثر من عشرين عاما) . وحين يعاد لها اعتبارها تكون هي والمجرم على موعد لتوديع هذا العالم . بدون هذه الاحداث ، المحبوكة بشكل طيب ، ساذج ، وبتيكنيك بوليسي باعث على الملل ، لم يكن ممكنا للقصة الانسانية المهزومة ان تستمر .

على هذا النمط الاستطافي في الرواية كتب أيضا ناثانيال هوثورن « الحرف القرمزي » ليجسم لنا اخلاق انكلترا الجديدة ،حيث كان هؤلاء المهاجرون المتزمتون الى حد الجنون ، يستعيضون بالرزانة البشعة والشعوذات ، وتقديس الاشباح ، عن الفكر المشرق ، والحرية الانسانية . وكتب المنفلوطي قصصه الموضوعة والمقتبسة بأسلوب يغرقنا في ثقافته اللغوية ، واحساساته الرومانسية . لكن اليوم ، لم يعد من المهم ان يعطينا الكاتب « بداية جميلة او نهاية قبيحة » كما قال ادريس الخوري . اننا نكتب عن القبح والجمال لنجسد الحقيقة كما هي لا كما يريدها الجماليون . البداية ربما تكون جميلة ، لكن النهاية قد لا يمكن انقاذها . ان الانسان لم يجيء الى هذا العالم ليتغنى بالجمال ، ويكسب المحبة الا وسط الاغبياء الذين يرتجفون امام الحقيقة المرعبة .

في قصة « الدفن » لمحمد زفزاف كان من الممكن للزوج ان يرمي جثة زوجته في اول حفرة ،ويتخلص من « صعود الجبل » وعرق جهنمي ينقطر من مسام جلده الضيقة المهترئة .« ماتت زوجته الطيبة،ودفنها بمشقة سواء في أرض صلدة قرب منزله او في مقبرة القرية . انذلك لا يغير شيئا مما حدث ، لان نهاية حياة ما هي بداية لا شيء ،ولا يعود الينا أي شيء عندما نفقد البداية والنهاية . لكن ماذا تعني القصة اذا تم هذا التخلص السريع ؟ ان المسافة الطويلة (انهيار في الطريق ، وتعب موئس ...) هي كل القصة قبل ان يعثر الزوج الطيب أيضا على طريق مناسبة توصله الى المقبرة . ليس الحدث في موت الزوجة ودفنها ، لكن في خيال قلقه عن انحلال زوجته في غيابه : « امرأته هناك في البيت ملقاة ككيس من التبن المبتل . لعل الجسد الان قد أصبحت له رائحة كريهة مزكمة ، ولعل بعض الديدان قد بدأت تتكون في اصابع الرجلين وهي تبحث لها عن ثقوب ومنافذ لعالم الضوء » « ربما تغطي جسدها ببساط من الدود » . لو ان ذئابا تسربتمن الباب شبه المفتوح بعد غيبته ونهب الجسد الميت . وتخيلزوجته التي طالما عانقها وضمها اليه بالحاح قد تمزقت اربا اربا».

ان المسلمين لا يحرقون موتاهم بعد ، والزوج سيدان اذا لم يدفن زوجته باحترام .. لكن ، من حسن الحظ ان جثة الانسان لا تشبه صخرة سيزيف . ولا عقاب بروميثيوس المرعب .

لا أظن الغراب (٢) أذكى من قابيل حين أجهز على خصمه . ومعذلك يعلم الغراب قابيل كيف يدفن أخاه هابيل الذي بدأ ينتن فوق كتفيه .

ان الحدث يحتاج الى استمرارية ، ودوامة ، ومعاناة . أحيانا بدافع ما سيحدث ، واخرى لتجسيم المأساة ، لان الحنين يولد الصبر.

في « الشيخ والبحر » نجد الحظ والمجهود والخوف مما سيحدث. وفي « ثلوج كليمانجارو » هناك الموت الذي يرفرف قريبا من «هاري» كالطيور الكاسرة نفسها التي تزعجه بتناكحها على مرأى منه . لكن الفوز في البحر اصعب من الانقاذ فيبيت الله (٣). ان املهما (هاري وحسناءه) شبه يقيني . ان الطائرة في الطريق اليهما . أما شيخ البحر فهو في دوامة الحظ .

ان وجود جثة حقيقية ، محمولة ، ليس كالبحث عمن قتل ، او من لم يقتل بعد ، تماما كالفرق بين ما افهمه وما أحكم عليه . انني اذ افهم قيمة الشيء يعني اني أجسمه ، واشعر بوزنه ، واستطيع تشييئه. لكن حكمي عليه فقط لا يكفي . تبقى هناك هاوية توحي بالدوار والسقوط .

حتى النيكر وفيليون(٤) لا يتخلصون من جثثهم بسرعة . ان مجرد رؤيتها ، في الاوضاع المشتهاة قبلا ، بعد الاشباع النشوي الاني ،يوحي بنشوة أخرى ، ولو بدون استئناف جديد .

أحيانا ، تكفي رصاصة واحدة . لكن مرسول اطلق « اربع طلقات أخرى على الجثة الهامدة التي غابت فيها الرصاصات دون ان يبدو عليها شيء» .وبعد المرة الاولى ، الخفيفة ،فوق جمجمة آلونا أيفانوفنا، أعاد راسكو لينكوف الضربة الجزارية مرتين اخريين بكل قواه . «اربع مرات أخرى » و « مرتين » بكل قوة . هذا هو السؤال المطروح . وهو اذ اختار الفأس فانما أختار أن يضرب بقوة ، بكل ثقل جسده ، وثقل الالة . لقد كان خائر القوة قبيل الاقدام على التجربة . كل شيء كان مغريا على تنفيذ الخطة : حديث الطالب مع ضابط في الحانة حديث ليزافيتا (اخت آلونا) مع التاجرة ، حلمه بحادث دابة ميكولكا الهزيلة المسكينة التي ضربوها حتى الموت ، أخته دونيا التي نجت من فسق السيد سفيدريكايلوف ، ولكنها ستبيع نفسها للسيد «لوجين» « الذي يرتاح لمصاهرة نساء فقيرات » فقره ، مضايقة صاحبة المنزل لعدم ايفائه بديونه ، وضعه كطالب قديم فقط ، الفتاة الثملة المسكينة التي لم ينجح في انقاذها من برجوازي يريد ان تصحو من سكرها بين احضانه – لان سقوطها ضروري . لقد كان ممتلئا بالعنف حتى الجنون . بالامس كان يشمئز من قتل أي « كائن حي » لكنه اليوم لن يشمئز من قتل حياة بشرية .

ليس هو الخوف اذن من قيام العربي القوي ، العنيد ، ولا هي مقاومة العجوز الفانية . ان المسيح قد رفع في اعتقاد المسلمين ، وقتلوه وصلبوه عند المسيحيين . وخوف العودة من القبر لم يعد له وجود الا في التاريخ (٥). ان هذا السر الغامض : لماذا اكثر من

---

(١) لكازافيه مونتابين .

(٢) من الوجهة التطورية .

٣ – اشارة الى « مازي نغاجي MASAI , NAGAJI في اللغة الافريقية السواحلية كما وردت في ترجمة الكتاب الى العربية . وتعني : « قمة الجبل الغربية » .

٤ – عشاق مضاجعة الموتى .

٥ – يقال بان المغاربة القدماء كانوا يسلخون موتاهم حتى العظم ويدفنون الهياكل وحدها . وآمنوا بالقرآن : « قل من يحيي العظام وهي رميم ؟ قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم » فكفوا عن هذه العادة بعد الفتح الاسلامي .

مـرة ، حيـن تكفي مرة ، قد يجيبنـا عنه ساديبو الجثث !

كان من الممكـن لسعيد مهران ان يتدبر أمره ويصرخ بعض اعدائه في اول لقائه معهم ، لأن حقيقـة المؤامرة التـي ادخلتـه الى السجن ظل كابوسهـا يعذبه مدة كافيـة ليعرف من اجل مـاذا دخل ، ومـاذا عليه ان يفعـل عندمـا يخرج ! قد يكـون هذا حكمـا متعسفا ، لكـن سعيد هـو الذي اختـار لنفسه هذا الحكم بالذات . ان تصميم القضاء علـى الخونـة يتطلب روح استشهاد كبيرة .

اننا نقرأ الروايـة من « مرة اخرى يتنفس نسمة الحرية » الـى « واخيرا لم يجد بدا من الاستسلام فاستسلم بلا مبالاة . . . بلا مبالاة . . » فلا نعرف بالضبط من أجل ماذا بدأ حنقه ؟ ولا من أجل ماذا استسلـم في المقبرة ؟ هل أراد أن يتخلص من كل شيء ثم يعـود الى السجـن ؟ ان أحداث الروايـة تبين لنـا انه كـان يتشبث بالحياة اكثر من الموت . لكنه لم يثر لا على الحياة ولا على الموت (اذا اعتبرنا الحياة في السجن اكثر موتا من الحياة خارجه) بما فيه الكفـاية . مـن المحتمل انـه سيشـعر بنفس الندم الذي شعـر به مرسول في زنزانته . لكن الفرق كبيـر بينه وبيـن جوليـان (1) الذي فضل ان يمـوت فداء للحب ـ رغم امكانيات الفرار العديدة ، وكذا كنتن كمبسن (2) الذي ينتحر ، من اجل واجب اخلاقي ، لانه يجـد مبرر عشقه للمـوت في ضيـاع شرف اسرته عندمـا ضاجعت اخته كاندس رجـلا عابرا جعلها تحمل منه . ان لجوء سعيد مهران الى المقبرة لا يدل قط على انه يريد ان يواجه مصيره بكل شجاعـة . ان اي شيء لم يكـن حقيقيا في ذهنه كوجود القبـور حوله . وجوده هنـاك لم يكـن صدفـة كمـا حدث فـي « الجـدار » لسارتـر . من أجل هذا سيتحمل مسؤوليـة اللامسؤولية . انه يريد أن ينتقم من أعدائه بالموت ، ثم ينقذ ابنته (سناء) في آن واحد . وهذا مستحيل . « اما ، أو » كمـا يقول كيركجورد : أما المسالمة من أجـل سناء ، أو الانتقام من أجل اثبات ذاته ، والقضاء علـى الذيـن خانـوا طبقتهـم .

ان هدف الروايـة لم يكـن بوليسيا ، او خياليـا (فانتازيا) . فربح كل شيء : الانتقام من الاعداء وانقاذ سناء لا يتحقق الا في عالـم المطاردة المستحيلة . لم تكـن لديه امكانيات الفرار الا في حيز ضيق : فهو لم يكن ينتمي الى اية عصابة . والمساعدات التي كان يتلقاها من بعض الزملاء القدمـاء كانت مجرد مؤازرة ، أو اعجابا ببطولة موعودة . لقـد خرج من السجن « متحديا » ومن يتحدى لا ينتظر عطفا : « ان يصفي حسابه مع (الخونة) ، وفي المقدمة نبوية وعليش » . ثم يقول : « ولن اقع في الفخ ، ولكني سأنقض في الوقت المناسب كالقـدر » . لكـن السنوات الاربع التي قضاها في السجن لم تكـن كافيـة لتشحنـه بالتصميم . ان التخلص من كل شيء يحتاج الى كثير من العنف . انه ليس الا بطـلا مسكينا ، يرثى له . . .

جاء للتفاهم مع عليش الذي كـان يتمسح في ساقه كالكلب . وهذا المتمسح ينـام له اليـوم مع أم ابنته سناء ذات السنوات الست .

« ثم ظهرت بعد انتظار طال الف سنة » . ان هذه الجملة لا يليق لثوري ان ينطق بها . انهـا جد رومانسية . لا تليق بمـن خرج مـن السجن ليعلن عن نفسه كبطل جاء ليخلص نفسه ، والذين خدعوا مثله . انهـا جملة جـد ساذجـة في فـن قصة عصرنا . لم تعـد هناك تشبيهات يـوم بمائة عام ، ولا أربـع سنوات بألف سنة . ان عالمنـا اليوم ايامه كنبضـات قلب سليـم .

« وكيف له (أي سعيد مهران) رغم ذلك كله بمقاومة هذه الرغبة الجامحـة في ضمها الى صدره حتى الفناء ؟ » اننا نشفق على هـذا البطل الذي اختاره لنـا نجيب محفوظ كنموذج ليصفي حسابه مـع الخونة . انـه مهزوم رغم المحاولات التي يبذلهـا ليكون بطلا . خال من ايـة شخصانية ، لان مفهوم البطولة اكبر من ارتباكه الذي قاده الى ذلك المصيـر الميئـوس منـه .

قالت سناء : « لا . » ان لاءها هذه مشحونـة بمـا في رأسها مسبقا عن هذا الانسان المجهول . مع ذلك فان سذاجة مهران تستمر . وهتفت : « ماما » . أليست هـذه الـ « ماما » أيضـا هي تأكيـد لمـا في رأسها ؟ ان الاطفـال عندمـا ينطقون بهذه الكلمة فانمـا يحملونهـا موقفهـم الحدسي ، الحرج . وموقف سناء هو : أنقذيني يا ماما مـن هذا الغريب الذي حدثتنـي عنه بسوء .

مرة أخرى تصيح سناء :

ـ لا .

ـ أنـا بابا .

تتراجع . لكن مهران يلح :

ـ أنا بابا ، أنا ، تعالـي ....

تزداد سناء رعبا فيزداد مهـران يأسـا :

ـ أنا بابا ، لا تخافي ، أنـا بابا ...

انهـا كلمـات بائسة .... لا تناسب قط بطـلا خرج من السجن لينتقم من الذيـن خانوه ، وخانوا القيم الاكثر انسانية . ماذا يجـدي أبـا لا تتعرف اليه ابنته رغم اصراره ، وتشبثه بعطفه الابوي ؟ ان كل شيء جاهز عنه من طرف الجميع : الام لابنتها سناء ، عليش لحماته ـ وعلى رأسهم المخبر . لم يكـن تشجيع الاخريـن لسناء لتتعرف على أبيها اول مرة الا لعبة أخرى للتخلص منه . الموقف يتضح عندمـا نجح الدور الذي لقنوه للطفلة . ومن ثم صارت لهجتهم معه اكثر صراحة ، وأكثـر قسوة ، لطـرده » .

« ياله من مسكن بسيط كالمساكن في عهد آدم » . هل يعرف نجيب محفوظ كيف كانت المساكـن في عهد آدم حتى يأتي لنـا بهذا التشبيه ؟ ان هـذا التصور الميثولوجي يقفز عن كل المراحل التي تلـي انسان ـ زنجانتر وبو hombre - zinjantropo حتى انسان كرو ـ ماجنون Hombre decvo - Magnon « السلام عليكم ياسيـدي ومولاي » . عندمـا يكتب نجيب محفوظ مثل هذه الجملة يبعث في القارىء الكسل . « ياسيدي ومولاي » ما الفرق اذن بيـن سيدي ومولاي ؟ « حدجه بعين رأت الدنيـا ثمانيـن عامـا ورأت الآخرة » . انني أعجب ! حتى الاخرة استطاع أن يراهـا هذا الشيخ الحكيم . لكـن مـا معنى ان يكـون الانسان قد رأى الدنيا ؟ هل يكفي ان يولـد ويموت ؟ اننـا لا نعرف عن هذا الشيخ اكثر من انـه كـان يتزعم بعض الحلقات الدينيـة فـي نطاق محدود . ونجيب محفوظ نفسه قال في حديث له مـا معناه بـانه لا يكلف نفسه كثيـرا في جمع مواد أعماله الادبية . ان حياته محصورة بيـن المسجد والمنزل . وأحيانـا تكفي جملة مـا يسمعها من خلال حديث ليكتب قصة طويلة ، وانه ليس مثل همنجواي الذي يتنقـل من بلـد الى آخر ليجمع مواد أعماله ، وانه أيضا ليس فيلسوفا مثل سارتر ، او كامـو ليشرح أفكاره الفلسفية في أعماله ، وانه ينفعل في كتاباته ويقف حيث يقف به انفعاله . وهذا العجز ، او الكسل الفكري ، هـو الذي يجعل معظم ابطالـه يبالغـون في تقديـر الاشياء التي ربما سمعوا عنهـا ولم يعيشوهـا .

« فلم يملك سعيد مـن ان يهوي على يده فيقبلها وهو يدفع دمعـة باطنيـة استقطرهـا من جو الذكريات والاب والامل والسماء في الماضي البعيد » . هذه هي مشاعـر البطـل الـذي سيصفي حسابه مـع الخونة . انـه يقبـل يـد شيخ يجسم الجمود ، وينتحب بمشاعـر انسان يتحسر على طفولته التي كانت توفـر لـه كل شيء . ان انفعـال سعيد مهران لـم ينضج بعد ، ولن ينضج ابدا ، ان حياته كثمرة يكشف فسادهـا الخارجي عـن الدود في قلبهـا . « مولاي ، قصدتك فـي ساعـة انكرتني فيهـا أبنتي » . ان سناء لم تتعرف اليه . اذا كانت قد سمعت عـن أبيهـا هذا فقد كونت عنه فكرة رجل سيء السيرة من طرف امهـا وعليش زوج مأها . لقـد كان الشيخ على حق حين قال : « مـا

---

١ ـ بطل « الاحمر والاسود » لستندال .

٢ ـ أحد ابطال « الصخب والعنف » لوليم فوكنر .

أشبهها بك .... ! لان سعيد مهران لم يكن الا طفلا في تصرفاته مع اعدائه » . خانتني مع حقير من اتباعي . تلميذ كان يقف بين يدي كالكلب ، فطلبت الطلاق محتجة بسجني ،ثم تزوجت منه . لقد كان وزير الشباب « فون شيراخ » (1) يعاني محنته الكبرى في سجن شباندو للحلفاء عندما جاءته رسالة من زوجته الجميلة تعلن اليه بأنها ستتزوج برجل تاجر سيضمن لها مستقبلها . لكن ما أعظم الفرق بين مشاعر فون شيراخ الناضجة وسعيد مهران الذي ظل ابن الماضي في كل علاقاته !

ان امثاله ، عندما تخونهم انانيتهم ، لا يستطيعون ان يبدأوا حياتهم من جديد مع امرأة أخرى ، وأشخاص آخرين ، وعالم اخر ، غير عالم ما قبل أربع سنوات قضاها في السجن .

« ثم تتابعت المصائب حتى أنكرتني ابنتي ». مرة اخرى تعاد علينا رتابة هذا البطل . أن هناك فرقا بين « انكرتني » ، وبين لم تتعرف الي ابنتي : سناء لم تنكره كأب تعرفه من قبل ،انما هي لا تريد رجلا لا تعرفه أن يكون ، هكذا فجأة ، اباها بكثير من الالحاح المخيف .

وينتهي الفصل الثاني بنفس السأم الذي بدأ به : شيخ علي الجنيدي سماوي ، وبطل لا يجد مأوى آخر يأوي اليه ، لانه لم يعرف كيف يعيد لحياته معنى انسانيا أكثر مما كانت عليه .

في البداية لم يتنكر له رؤوف علوان المحرر في جريدة«الزهرة» . «انت مجنون ان ظننت أنه يرحب بك من قلبه » . هكذا بدأ سعيد يسيء الظن بمضيفه ـ صديقه القديم . ثم يتهم صديقه هذا صراحة حين يقول له : « وهذا البهو الرائع كالميدان ...» قال رؤوف :

ـ وهل انتظرت هنا طويلا ؟

ـ عمر كامل .

مرة اخرى يذكرنا هذا التعبير بمائة سنة ، وألف عام من الانتظار عوض ساعة أو ساعتين . لكن هذا الزمن الرومانسي متوقع من بطل فقد توازنه مع الواقع . لقد صار يستعجل كل شيء . انه لم يعد واثقا من أي شيء . أن الاستعجال الزمني وتضخيم ساعة بمائة عام ، أو الف ، غالبا ما تصير عقدة المسجونين المزمنة حتى بعد أن يتحرروا بصفة نهائية .

كان مهران أحد تلاميذ رؤوف علوان في انتقاد اصحاب القصور قبل أن يدخل السجن ، لكنه يخرج من السجن فيجد استاذه القديم هذا يسكن في « قصر الانوار والمرايا » . قال رؤوف :

ـ أنت تتوهم أني صرت واحدا من الاغنياء الذين كنت أحمل عليهم . وعلى هذا الاساس أردت أن تعاملني .

ويبدو ان القضاء على الذين يخونون ماضيهم يتطلب تخطيطا اكثر من الذي أعده سعيد مهران .

« بدأ القصر مسدل الجفون ...» أن هذا التعبير عن النوم لم يعد يتلاءم مع اسلوب العصر .(نامت الخيانة ـ رؤوف علوان ـ في هدوء بديع لا تستحقه البتة). وحين يفشل في سرقة استاذه أو اغتياله ، لانه كان أكثر حذرا وذكاء منه ، يخرج ورأسه مثقل ببعض كلماته : « ان رأيتك مرة أخرى فسأسحقك كحشرة » .

كان هدف هملت هو الانتقام لابيه السيىء الحظ . وسيكون ضد ارادة نظرية فرويد . أن هملت يحب أباه أكثر من أمه . انه مثل أورست الذي سينتقم لابيه أجاممنون . لكن فعل اورست أكثر تصميما من فعل هملت . وحتى حين تضعف أخته الكترا يبقى هو صامدا .لقد كان أقوى حتى من ندم شعب أرجوس نفسه . واجب هملت اذن ان يكون اكثر نزاهة من احساسه العاطفي المرهف . لكن الامر يختلط لديه بمونولوج هلوسي ، عنيف . كل شيء يتم في داخله . مجنون ظاهريا وعاقل باطنيا ـ مع التباس طفيف حتى لدى أكبر المحللين لشخصيته . لكن من يصطنع الجنون قد يشك في سوائه أحيانا :هل

(1) وزير الشباب في المانية الهتلرية .

أنا موجود حقيقة ام لا ؟ وهو من أجل الانتقام لابيه لا يقضي على أعداء أبيه وأعدائه فقط ، لكنه يقضي حتى على نفسه بتردده . لقد اتاح المجال لهم ليعرفوا حقيقته ليغتالوه . كل شيء يتم من أجل الشبح الذي يحمل روح أبيه . وهو يظهر ويختفي مخلفا وراءه أصواتا تنبح عليه كالكلاب التي لا تعض . يبدو ان شكسبير كان يعرف جيدا أهواء عصره . لقد كان على اتصال مباشر بجمهوره كممثل ومؤلف . كان عصر الهيام بالمسرح في المسرح ، وافتعال الجنون ، وخلق الاشباح. اننا حين نقرأ « معطف » جوجول واعمال ادجار بو و« مرتفعات ودرينغ » لايملي بروانتي ،نجد ان هذه الحمى لم تكن قد فترت بعد . وحتى اليوم نجد الكثير من القراء ما يزالون يطالبون بعض الكتاب المعاصرين بخلق اشباح جديدة معاصرة لنا ، او مستلهمة من الماضي . واحيانا يكفي الحديث عن قصر مهجور ،او تسكنه اسرة معظم أفرادها مسنون ، ليتخيل البسطاء اللذة المرعبة .

ان هدف المسرحية هو أن يتخطى هملت كل من يعترضه وينتقم لابيه بدون حذلقة ،ولا فلسفة نرجسية عن الموت ، وخواطر عن الحب تسبب العنة . لكننا نلوم سعيد مهران أكثر من لومنا هملت . مهران ثوري نظريا وعمليا . خرج من السجن ليقضي على بقايا الافكار الباشوية الجديدة ، بادئا من الذين خانوه مباشرة . أما هملت فهو ارستوقراطي،مكبوت جنسيا ، مثالي ... مهران ينام مع صديقته نور في فراش واحد ، وقد يحميها من الذين سيضحكون لها في وجهها ولا يدفعون جيدا ، اذا كانوا من الذين يبدو عليهم انهم مستعدون للفرار تاركين بعض ملابسهم .

لقد كان تولستوي على حق حين وصف شكسبير بالافتعال في أعماله . ان أبطاله يقضون وقتا اسطوريا مملا في مناجيات الارواح قبل أن يجدوا خلاصهم في الموت . انهما يتحولان معا الى صنمين يتناجيان . ينسيان لذة اللحم والدم . هاهنا كل شيء قابل للحياة. لكن الحياة تموت فيهما . يصيران مجرد فكرتين تجريديتين . الزهور ، الحب اللانهائي الذي جنن اوفيليا ، والتأجيل اللامجدي . انه خلاص العجز عن الاستمرار .«الحب في الموت Love in death كما في روميو وجولييت . وتموت أوفيليا دون ان يستطيع هملت حتى ان يقبلها . ينتهي التردد فتمتلىء القاعة بجثث المجرمين القدماء والضحايا الجدد .

لكن لولا هذا العجز الطويل فلن تكون هناك لا مسرحية هملت ولا رواية « اللص والكلاب » ولا « الايدي القذرة » لسارتر . انهوجو تعذبه نفس مشكلة التردد في تنفيذ اوامر الحزب . واخيرا يتم له ذلك التنفيذ بدافع الغيرة وليس بدافع الواجب السياسي . وهنا تحققت له الغاية في اللاغاية كما عند كنط . لكن هملت يموت ثوريا شهيدا ، وسعيد مهران يعاد الى السجن ليساط من جديد ككلب . ويبقى الخونة يعيشون على حساب جبنه ، وماله ، وغبائه. وسيظلون يقذفون بامثاله خارج دائرة حياتهم الجديدة كما يمثلها رؤوف علوان في قمتها .

أن الكاتب والقارىء ،او مطلق أي انسان ،حر في اختيار مصيره حتى ولو كان في هذا الاختيار استعراض ما .أن يطلق على نفسه النار كما فعل همنغواي وفان خوخ ، وماجدة الشاهدية (٢) أن تكون هناك صدفة ، مثل موت بيرون المحموم ، او نزهة بحرية غائمة كغرق شيللي او تحد للرجعية . كمحاكمة سقراط ومقصلة جوليان (٣)ومرسول ان موقف هؤلاء الثلاثة الاخيرين ، على الاقل ، كان ضد البطولة ،ما دامت العدالة التي حاكمتهم هي ما ورائية اكثر منها

٢ ـ شاعرة لبنانية ، كتبت شعرها بالفرنسية . صدرت سيرتها الذاتية في مجلة « الف ليلة وليلة .» ماتت شهيدة حبها الكبير لشاهد الذي قيل أنه كان يستحضر الارواح . آمنت به ماجدة كنبي جديد بجنون .

٣ ـ بطل الاحمر والاسود .

واقعية . ما علاقة مشاعر الابن نحو موت امه في مأوى (مآرانفو) وجريمة شمسية اصطدمت بالعودة الى النبع ، وضربة الشمس التي ذكرته بقيظ ذلك اليوم القابض ، ونخوة العربي الذي كان يعمي مرسول بسكينة في وهج الشمس ؟ أليس هذا حافزا لمرسول لكي يتحسس مافي جيبه بعماءدموع الملح الكثيف ويحدث تلك الضجة في ذلك الساحل الصامت الجهنمي ؟ مع ذلك ، كانت لكل واحد منهم الفرصة الاخيرة. لكن جوليان يرفض كل فرصة تتاح له ويعلن بعناد امام السادة المحلفين :« انني لا أطلب منكم أية رحمة ...» « جريمتي بشعة.وقمت بها عن سابق تصور وتصميم ، وأستحق الموت » .

كان هناك حظ آخر لمرسول مع قاضي التحقيق لو انه اعترف بتقديس المسيح . اما سقراط فقد كان أكثر منهما حظا حين اتاح له تلاميذه فرصة الفرار بالحاح . لكنه رفض بقليل من العناد ، غيرآسف على شيء . ولهذا كان أكثرهما بطولة .

أحيانا تكون هناك أزمة غموض : جان جاك روسو عثروا على جثته متورمة فوق الاعشاب التي كان يبلل قدميه بنداها ، أستفان زفايج الذي صار كاتبا عالميا انسانيا ،جاك لندن جمع ثروة كبيرة بعد أن كان ينام في قاطرة بمدينة ما ويفيق على اصطدام تبديل القاطرات في مدينة أخرى . وفي الوقت الذي يكون هناك غموض ،أو اصرارمجنون أو ملل ، تكون هناك سقطة واضحة ، متوقفة من حين لآخر : ادجاربو ، زكي مبارك ، ، ووليم فوكنر .(١) .

اننا حين نقول : هذا لا معقول ، أو مات ميتة لا معقولة ، فهذا يعني انه ليس هناك جبرية ، تسقطها علينا أزرار سحرية يضغط عليها ، ولا تصاب ابدا بالعطب . أنما هناك صدفة ، سوء حظ غير مكتوب في كتاب مستروح الاموات . وبالمعنى البيولوجي هناك الذبحة الصدرية ، العطسة ، الدوخة ، الصراع ، الربو ، الثرثرة ،الشعاع المعمي ، والقبلة المجنونة .. الخ . انه في الوقت الذي يحدث هذا الخلل في الجسم يكون كل شيء قد انحرف . وآليا ، أو طقسيا، يحدث نفس الدمار : كامو ، مرجريت متشل ، لورانس العرب ..-٢) أذن هناك اختيار ، وهناك عبث أعمى . لكن أسوأ من هذا وذاك هو ما يحدث في الغياب دون اختيار ، أو حتى سوء الحظ السيزيفي المثقل بالهموم التي تنتهي حيث تبدأ ، ولا ينعب المعذب الابدي الذي يعمق حقد الانسان عليه : نابوليون ، مكسيم جوركي ، جارشيا لوركا، وبول نيزان. لقد كانت لهم مواقف مختلفة . لكنهم ماتوا دون اية جلسة علانية .وحين نسأل التاريخ المأجور يقال لنا بأسلوب مسرحي بأن نابليون مات بسرطان الامعاء ، وكان له طبيب خاص ، وعومل باحترام . وان مكسيم جوركي مات بالسل ،رغم الادوية الجيدة ، والرعاية الطبية ، والهواء الطلق . أما جرثيا لوركا وبول نيزان فقد صرعتهما طلقات اشخاص ذوي اقنعة سوداء ، لا تعرف هويتها رغم الاتهامات الموجهة للحرس المدني . ويأتي تاريخ الاشعاع الذري فيقول لنا : شعر نابوليون المحفوظ جيدا ، يكشف موته بالزرنيخ ، وليس بسرطان الامعاء . وينطق الذين ظلوا أحياء ، بعد أن قل الخوف ، ولم يعودوا يهتمون بمصيرهم ، ما داموا قد ناهزوا عمر اللاجدوى من ايقافهم فنعرف بأن مكسيم جوركي سممه أعداء العمال ، ولم يمت بالسل وحده .

لقد كان هناك حقا كبرياء حدسي منهزم تجاه ثأر المنتصرين : انطونيو وكليوباترا ، هتلر وايفابراون ، وجين ساذج كموسوليني وعشيقته بيتاشيا اللذين علقوهما ككبشين وبالوا عليهما في الشوارع .

* * *

لقد انتقد الاستاذ سامي خشبة قصتي « العنف على الشاطىء» بلهجة تهكمية ، لكن بقليل من الدقة :« ولكن محمد شكري يعرف عن بطله المجنون أكثر مما يعرف البير كامو عن بطله المنفي الغريب » و« لكن محمد شكري يعرف أيضا عن بطله المجنون أكثر مما عرف سارتر عن بطله الشاذ الهارب من العادية . » واعتقد ان المقارنة التي وضعها سامي خشبة لبطلي مع بطل كامو « الغريب » و« ايروسترات » لسارتر هي مجازفة في النقد . ان قصتي لا تتوفر على قيم النضج الكافي . لكن هذا التبرير لا يعني ايضا الكثير ما دام الكاتب مسؤولا عن انتاجه في جميع مراحل تطوره . « ومثلما بحث الغريب عن مأواه في الموت ، كذلك راح ميمون يبحث عن مأواه في عمل انتحاري- بعد هجومه الاخير على الجحيم - بالقاء نفسه في البحر . « انه لا مرسول ولا ميمون بحث عن الموت باختياره . أن مرسول حين رفض الدفاع عن نفسه كان يعني انه قد انخرط في موقف اللابطولة،وفرار ميمون كان شعورا بلذة عدم الاستسلام . مرسول واع بشكل ما تجاه كل شيء . أما ميمون فيفكر باضطراب في عناصر الاشياء : الشمس والبحر يعطيانه الملح ، والملح سيباع بثمن باهظ ليلحق بجوبي .لكن عندما يخيب أمله تماما ،حتى في الاصداف التي يتعثر فيها ، ولا تستحيل في يده الى جواهر ، فماذا له حين يرى ان كل شيء يفري بالدخول الى الجحيم ؟!

ان الاطلاق عند مرسول جاء صدفة . لقد أعتبر القضية منتهية مع العربي العنيد خصم رامون . لكن الذي جعله يطلق النار فهو بقاء العربي هناك عن ترصد قبائلي مقصود ، وتحد فروسي ، بسكينه التي شهرها في وجه مرسول كانعكاس مرآة في وهج شمس لاهبة . كذلك لم يكن ميمون ينتظر أن يجد هناك جوني جديدة ممدودة بشكل يخرج الواحد من الجنة ويدخله الجحيم . ان ميمون ليس هو يوسف زليخة (١) ان عربي مرسول ، وفتاة ميمون التي سقط اللثام عن فمها الاسفل المشورب بشقرة خفيفة كلاهما مسؤول عن اطلاق مرسول، وارتماء ميمون . انهما فعلان سقطا عليهما صدفة بدون سابق قصد . أما ايروسترات وميمون ففعلهما الجنسي يختلف : فعل ايرواسترات شذوذ مفتعل ، مقصود ، كمن يترصد صيدا . ايرواسترات سارتر عنين . ساديته الوهمية ناتجة عن ترف ذهني ، وملل اجتماعي ، واسلوب صبياني في التفريج عن العجز اللمسي الذي يعانيه . أن اشمئزازه الجنسي يختلط لديه بخوفه من لمس الاشياء الجرثومية كعدوى المحترفات مثلا . أما ميمون فلم يكن مصابا باللاتمييز الكلي ، او بفعل قهري تجاه الاشياء . ان شغفه بتمزيق ثياب جوني انما هو شعور بانتعاظ آخر . رجولته كاملة ولا يحتاج الى نفس اثارة عاهرة ايروسترات لينتعظ ثعبانه . ايروسترات مصاب بالارتخاء والقذف السريع . وقد يقذف دون ان يتم له أقل انتعاظ . وعندما يسأم تماما من عاديته يعد خطة الاستعراض : كتابة الخطابات وارسالها الى الذين يعنيهم الامر ، في نظره ،ثم الاتجاه الى الناس العاديين ليرعبهم بطلقاته الهوائية . وفي المرحاض يكتشف انه اقل من جميع الناس الذين يحتقرهم . انه والرائحة المنبعثة حوله سواء .

ميمون لم يستعرض نفسه الا مع نفسه . ولم يكن يجعل الناس يدوس بعضهم بعضا كما جعلهم ايروسترات قد نلمح اثارة من غريب البير كامو ، ومن ايروستراتوس سارتر في ميمون محمد شكري،ولكنها اثارة سطحية قليلة الغور ، تدفع بتجربة الكاتب الى ضرورة ان يبحث لها عن عمق فكري أكثر تمثلا واصالة ».

لقد قدمت ميمون في حدود بيئته ،تجربته وتجربتي معه .معذلك، في استطاعتنا انقاذ ميمون أكثر من انقاذنا مرسول ، وايروسترات.

« كذلك لم يكن من الممكن ان يكون ميمون الذي يعاني مزيجا من الجنون المبكر وبارانويا الاضطهاد ! فما وصفه المؤلف صراحة

---

١ - كان هؤلاء الثلاثة مدمنين على الكحول بافراط .

٢ - مات هؤلاء بحوادث الاصطدام .

مستروح الاموات : البرزخ الذي تستقر فيه الارواح .

١ - اشارة الى قصة يوسف التي أغرته امرأة العزيز فأبى ، ثم كان مصيره الذي ورد في القرآن .

هو بطل أيروستراتوس سارتر . » انني أيضا اتساءل كيف أمكن للسيد خشبة ان يعرف بأنبطل ايروسترات مصاب بما وصفت بهميمون صراحة ؟ هو يقول : « انه مجنون بارادته » . لكن في علم النفس انه ليس هناك من يتعمد الجنون بارادته . ان بيرون كان يشرب الخمر في جماجم بشرية ، ودانتي لا يكتب أجمل اشعار مهزلته الالهية الا حين يكون مستندا الى شاهد قبر ، وجان جاكروسو تأتيه أحسن أفكاره وهو يتمشى بين الحقول . ان هذه دوافع سلوك استهتارية وقهرية ، لكن ليست حالات جنون ارادي . هناك شذوذ قهري ، لكن من الصعب أن نقول : ان دون كيخوتي وهملت وايروستراتوس ، كانوا مجانين بارادتهم . ان من يحارب بجسم هزيل الطواحين، وقطعان الماشية لينفس عن مثاليته ليس كمن لا يأكل طعامه الا اذا جعل خادمه يقسم له أنه حقيقة قد غسل الصحون جيدا بالصابون والماء الساخن ؟ ان هناك فرقا بين من يعاني الخوف من الجراثيم وبين من يريد ان يثبت ارادة انتصار الخير على الشر ولو في الوهم . لذا يصح ان يكون ميمون مجنونا لا اراديا ، وليس من أجل ان يغير واقعه كايروسترات . ان من يريد ان يغير واقعه « لان حريته تراكمت عليه » لا يكون قط مصابا بالانفصام الشخصي. ميمون كان يعرف نفسه ، ويعرف الناس الذين عاش بينهم . لذا ، لم يكن ينتظر منهم لا خيرا ولا عطفا لانقاذه . ان وضعه كانت فيه مغامرة بدأها واختار ان ينهيها على طريقته الهروبية . اراد ان يتخلص من الزيف . والانسان حين يجوع يصير متاع الناس لديه مشاعا ، اذا لم يسعفوه في الوقت المناسب . ان الرغيف الذي خطفه جان فالجان هو صدقة مغتصبة في فعل سرقة . ان موت فانتين (١) ومارتاالبانية (٢) ادانة للبرجوازية المصابة بعقدة اغتصاب ، او مضاجعة البروليتارية ،ثم احتقارها . لهذا يكون رد فعل هذه الطبقة المستغلة (بفتح الغين) في جميع المستويات ،عدلا . لقد اثبتت ابحاث الجرائم الجنسية ان أغلب الضحايا من الطبقة البرجوازية .

ان هجوم ميمون على حواء التي أخرجته من النعيم ، وستدخله الجحيم ، هجوم مشروع . لقد كان كل شيء مغريا : ورقة التوت التي ذهبت بها نسمات الصيف الزرقاء ، استلقاؤها في وضع ذكره بجوني التي لم يستطع ان ينساها ، ولا ان يلحق بها . لم يكن بامكانه منذ هجرته حتى ان يستأنف حياته مع أية امرأة أخرى . ان الواحد لا يدخل الجحيم الا مرة واحدة ، عندما يسوء حظه . وقد وجد ميمون الباب مفتوحا فدخله بعنف كما غسلته قابلته لاول مرة ، وضربته على ظهره لتجعله يصرخ بعنف ليثبت وجوده . ان حمم الجحيم تجعل الانسان منفعلا ،دمويا ... ثم يمسخ ليخيف المهددين بدخول جحيم دانتي .

ان وضع ميمون لم يترك له حتى الوقت ليتردد من جديد.

أعتقد أن الاستاذ سامي خشبة عندما كان يكتب :« أن ميمون لا يشبهنا ، وليست به اشارة واحدة من التشابه معنا » كان يتخيل فرانكشتاين لماري شيللي .

ان ماتيو (١) لم يكن ينتظر ضباطه الخائنين ان ينقذوه عندما وقف وراح يطلق ضد كل شيء في مقاومة مجنونة . من كان يستطيع ان ينقذ فرانز (٢) وأباه وهما في طريقهما الى نهايتهما الاختيارية : كوابيس فرانز الحربية ، أزماته القلبية ، ذكريات حبه المحرم مع أخته ليني ، سرطان حلق أبيه الذي بدأت كحته تنبئه بالخناق ، وندمه على كل شيء في حياته . ان هذا العذاب يذكرنا ببروميثيوس . و« خطير هو الانسان الذي ليس لديه ما يخسر » كما قال جوته : ان ليني كانت تعلم بقرار أخيها وأبيها النهائي، لكنها هي أيضا كانت قد انتقلت اليها عدوى جمال جنون اخيها وسط محكمة العقارب . لقد ترك لها في غرفته كل شيء لتتعلم جيدا كيف تحاكم أخطاء الاجيال ،حتى نفسه الضائعة في الماضي . ربما في الامكان انقاذ ليني وفرنز الذي ربما سيقتفي يأس أبيه عندما يكتشف ان ما ورثه مهدد بالمطاردة النازية . لكن لا يمكن لنا ان ننقذ فرانز والسيد جيرلاش ،الا اذا كانت لدينا آلة الكترونية نضغط عليها فتطير سيارتهما الاوتوماتيكية دون ان تنفتح الابواب . هكذا يمكن ان نمنعهما من اليأس الاني فقط . لكن سيبدأ كل شيء من جديد كما هي شهوة ايناس لاستيل ، وضيق استيل وجارسان من وجود ايناس ، وسيزيف يعيد صخرته مكدودا بتعب لا ينتهي .

ان سارتر لم ينقذ ماتيو لانه لم يعد يجد ما يقوله من خلاله لقد تحدث عن ديكارت وشعر بندمه عندما ترك مارسيل بين احضان دانيال اللوطي ، وحاول ان يقنع ايفيش بأن جوجان رسام عظيم ،ولانها اذا لم تعجبها لوحة بريشته فلانه رسمها وهو مريض . انه متساهل في كل شيء حتى عندما طلبوه للتجنيد الاجباري تاركا لها مفتاح غرفته لتقحب في غيابه .

ماذا يبقى اذن للانسان بعد أن يطلق الرصاص على كل شيء ؟ انه اذ يطلق على كل شيء سيطلق أيضا على نفسه . ان ما اختاره لنفسي اختاره لغيري من خلالي . لقد تخلص سارتر من ماتيو كما تخلص سارتر نفسه من الزيف الذي بدأت تكشف عنه متناقضاته تجاه بعض قضايا العالم . ومثلما تخلص ماتيو من الزيف في برجه النضالي حاول جورج سالم في قصته القصيرة « في الطريق الى الصحراء » ان يخلص بطله « س » من زيف اخر . لكن زيف « س » زيف فردي شيئي . الحقائب الثلاث بما فيها من طعام وثياب وعلم وشهادات ومذكرات ، واضمامة صور . وحين يجد نفسه في جحيم التيه يدخل في الهذيان يفقد معنى الزمن ، والوجود يبدأ كائنه الشخصي يتشيأ ليصير مجرد شيء صيرودي خام :

ـ عليك الان أن تصير حبة رمل .

ـ حبة رمل ؟ كيف ذلك ؟

ـ اضطجع على الارض ، وتمدد بين اخوانك حبات الرمل الكثيرة.

كان الصوت غريبا . وعبثا حاول « س » المسكين ان يحتج. لقد كان حقا كبيرا .

وحبة الرمل التي سيصيرها هي صغيرة . « فاضاف في شبه يأس »

---

١ ـ بطلة شقية جدا في قصة « البؤساء » لفيكتور هوجو . ماتت وهي تتحسر على رؤية ابنتها كوزيت التي باعت من اجلها كل ما تملك ، حتى نفسها .

٢ ـ بطلة قصة جبران خليل جبران في كتابه :« عرائس المروج ، كانت تتمنى لو كانت الحياة حلما أبديا لتهرب من واقعها المأساوي .

١ ـ البطل الرئيسي في « دروب الحرية لسارتر .

٢ ـ أهم أبطال « سجناء الطونا » .

المكتبة الوطنية وفروعها

البحرين ـ الخليج العربي

وكلاء توزيع كتب ومجلات وادوات مدرسية

اطلبوا منها

مجلة « الآداب » ومنشورات « دار الآداب »

ـ أهذه هي النهاية اذن ؟

« ولما لم يجبه أحد ، امتثل للامر واضطجع على الارض . وخطر لـه سؤال اخير :

ـ كم يستغرق ذلك ؟

« همس صوت في اذنه يقول في منتهى الرقة والهدوء » :

ـ لن يستغرق ذلك الا بضعة أيام من أيام الرب .

« وأغفى س » .

وبذلك تحول الى شيء عنصري صغير أقل من فتات تجره نملة . لكنه تخلص من الزيف الكبير .

أن الانقاذ ، أحيانا ، يبدو كالبالون بلاستيكي منفوخ في يد طفل شرس . ان أخلد الابطال لا ينقذون . خلودهم ينتفي بانقاذهم . لكن السؤال هو بدافع ماذا أراد « س » في « الطريق الى الصحراء » أن يتخلص من كل شيء ؟ لقد قدمه لنا جورج سالم مقطوع الجذور، جاهزا : (فرأى أن هذا الصباح لا يختلف في شيء عن سائرالاصباح). ان هذه الجملة توحي لنا بالسأم من الوجود . (التفت التفاتة أخيرة فلم توح له البلدة الغافية في احضان السهل بأية عاطفة .« انشعور « س » في «الطريق الى الصحراء » شبيه بشعور روكانتان (١) تجاه مدينة بوفيل (٢) . لكننا نعرف الكثير عن بوفيل ولا نعرف شيئا البتة عن مدينة « س » في « الطريق الى الصحراء » . ان هذه الهجرة التخلصية لم يكن س واثقا منها تماما . والا فلماذا (سوى فراشه ولحافه) ؟ هل فعل هذا بسبب العادة ..؟ ان من يريد ان يتخلص من كل شيء لا يأسف على أي شيء . لهذا ، يبدو لنا سفر « س » كالمشي في النوم !.

في البداية لم يكن عازما على التخلص من كل شيء : فالكرامة التي كان يحملها في حقيبة العلم (قدر أنه قد يحتاج اليهاالتدوين ما يخطر له) .ان الذين يقضون حياتهم في رفاهية مفرطةغالبا ما يحتقرونها عندما لا يكون هناك مجال للبدء من جديد : (أن ثوبا واحدا يكفيني ، وليس يحتاج الكائن الحي الى كل هذه الثياب).قبيل موت أحمد شوقي بك شعر بنفس هذا الشعور صحبة سائق سيارته . لقد قال لسائقه بهذا المعنى ، وهو داخل الى منزلهالكبير مشيرا الى الارض المحيطة بالمنزل :

ـ لماذا هذه الارض الفائضة كلها ؟

قال السائق :

ـ لماذا تفكر هكذا في هذا اليوم يا بك ؟

كان شوقي يكره سماع أي حديث عن الموت الذي كان يخشاه. لكنه في ذلك المساء بالذات تحدث هو نفسه عن الموت ، وعنالارض المحيطة بمنزله ، وكم يمكن ان تسع من قبور ! ونفس تائيب الضمير حدث له مع المتسول الذي أعترض طريقه في سيارته : فقد تجاوزه أول مرة ، ثم عاد اليه بنفسية الطفل الذي حطم لعبته العزيزة عليه. بحث عنه السائق حتى وجده ،ونفحه بهبة جنيهية لم يكن يجود بمثلها من قبل على أمثاله .

ان تخلص « س » من الزيف كان صدفة ، ليس عنسابق تصميم: (كانت يده التي حمل بها الحقيبة وقتا طويلا تؤلمه، فتمنى لو ترك الحقيبة حيث أقام لكي يأخذها في عودته) . ان الشعور بالزهد كان يتعمق فيه حتى بلغ منتهاه : (فلتطل لحيته ما شاءت ان تطول .اي ضير في هذا ؟ سيكسبه ذلك هبة ووقارا) . انه لم يعد في حاجة الى شيء حتى وجوده الكائن الذي بدأ يتلاشى مثل صلب ينصهر .كان نداء الصحراء قويا . لم يعد هاما حتى ان يلتفت الى المناظر الجميلة قبل أن يدخل الى التيه . لقد امتلأ بكل شيء ، ومل من كل شيء فليترك كل شيء لمن لا يزال جائعا الى كل شيء . لقد تعلم الكثير (مثل بطل رواية « موسم الهجرة الى الشمال للطيب صالح) لكن فكرة :« ان الكل باطل » وكل مايدركهالانسانهو قبض رياح ،جعله يحتقر كل شيء ،الا نداء الصحراء . اذن ما الفائدة ما دام :« انه لم يجن سعادة ، ولم يشعر بفرح قط .» ؟ اذ :« فربما كان ما يبحث عنه متوفرا في الصحراء التي يقصد ، فليرم بها (١) »لقد أخذ س الان يشك في وجوده ، بعد أن شرب من النبع . هل وجد ؟وهل هو موجود الان ؟: (أكان من فعل هذا النبع السحري ؟ ذلك بانه لم يعد يذكر اي شيء على الاطلاق ، ولم يعد قادرا على التذكر . فقد غامت الدنيا في عينيه ،ولم يبق في ذهنه الا شيء واحد ، هو الصحراء . أما من أين جاء وماذا فعل بالامس وقبل الامس ، وأين وكيف قضى أيامه ، وأين أهله وذووه ومن هم ؟ فقد غامت هذه الامور كلها في عينيه ، ولم يعد يرى امامه الا الصحراء التي ينتظرها ، وتنتظره، منذ أمد بعيد ،موغل في البعد) .

ان الرمز هنا عند جورج سالم مثقل بالاحتمالات : العودة ، التيه، الزهد ... الخ. هنا أيضا يعود رمز كل شيء باطل وقبض ريح (وراح يلاحظ اثار اقدامه على الرمل فأعجبه منظرها ، ولكنه فوجيء بالرياح تسفح سطح الصحراء فتغطي مواطيء اقدامه . وآلمه فعل الرياح وحز في نفسه غياب اثاره ، فراح يسير متعمدا رؤية اثار قدميه. ثم يتوقف حزينا ليرقب اختفاءها). ان اثار الاقدام هي كل مجهود الانسان ، لكن الرياح هي أيضا جحود الانسان لاخيه الانسان .وما دام الامر هكذا فان « الانا » عند سارتر ،و«الدونية » لدى ادلرو « الجنس » عند فرويد ، واللذة الانية الارستيبية والابيقورية وكتابات د . هـ . لورانس وتينسي وليامس .... الخ ـ ان كل هذا له ما يبرره عندما يحرق ايروسترات المعبد ، ويتلذذ ابطال المركيز دوساد بضحاياهم بعد ان يرتفع الجسر الوحيد الذييصل بباب القصر بطريق النجاة منذ أن نما للرجل « الثعبان الاعور » وللمرأة « الجحر الدافيء » .

ان عجز سارتر عن أتمام الجزء الرابع (الفرصة الاخيرة)ليس لان البناء الروائي هو الذي لا ينسجم وحده مع احداث المقاومة ـ كما عبر هو نفسه ـ انما ربما لانه قد تخلص من أهم شخصية كانت تتلاحم حولها احداث الرواية .لقد حاول برونيه وشنايدر ان يخططا لمستقبل الحزب في المعسكر ، لكن صبرهما نفد في الاسر مع أخوانهما . اخيرا تخلص شنايدر من نفسه عن طريق مغامرة كانت تبدو فاشلة عن سابق حدس .

لقد حاولت سيمون دوبوفوار ان تشرح الغموض الذي انتهى به موقف ماتيو . قالت ما معناه في « قوة الاشياء » : ان ماتيو لم يمت ، انما هرب ، واستانف حياته من جديد مع احدى المنظمات السياسية في باريز . من هنا يبدو لنا ان ماتيو لم ييأس تماما، وان الروح التي كان يقود بها تلاميذه الفاشلين في الدراسة ،وزملاءه الضائعين في حيرة مواقفهم الحزبية قد استيقظت فيه من جديد . لكن الاطلاق على كل شيء لا يكون الا مرة واحدة ،لان الانسان لا يقتل عدوه مرتين . كذلك كان موقف ماتيو وفرانز وابيه السيد جيرلاش ،و«س» في طريقه الصحراء ، وارتماء ميمون في البحر . ان هؤلاء وامثالهم ، لا يتخلصون من الزيف الا مرة واحدة . ومطلق انسان حر في ان يتخلص من زيفه ،وزيف الاخرين الذينيضايقونه كما يريد هو . انه حقا موقف عبثي لكنه بدون هذا التمرد لايمكن لوجود انساني نقي ان يكون في العالم . على الانسان ان يكون او لا يكون . ان ماهيته عليه ان يبرر وجوده . وهيدغر عندما قال بهذا المعنى :« الانسان موجود للموت » كان يعني ان يحقق الانسان منتهى نقاء وجوده .

طنجة (المملكة المغربية)

محمد شكري

١ ـ بطل الغثيان .

٢ ـ الهافر

١ ـ الحقيبة التي تحتوي على العلم وما يثبت ان س قد تعلم .